فلاحنا المسكين، كم نظلمه!

قال لى الطبيب : أسبوع واحد فى الريف المصرى الجميل ، كفيل بتهدئة أعصابك الملتهبة وإراحة نفسك المتعبة المكدودة :

فذهبت إلى الريف . . .

ريف مصر الساحر الوديع ، ألتمس فى سكونه نوعاً من العزاء ، وأنشد فى بساطته ، راحة البال وهدوء الذهن المرهق .

* * *

دخلت القرية وكأنى خلفت ورائى دنيا الضجيج والثورة وطالعتنى صديقاتى الريفيات بوجوههن الكريمة المرحة ، فرأيت فى ابتساماتهن القانعة ، شيئاً كثيراً من العزاء ، ووحياً يغرينى بوضع الحمل الثقيل المرهق الذى يرزح كاهلى تحت ثقله ، ثم استنشقت نفساً طويلا عميقاً وددت

نشرت فى الأهرام فى ١٨ من يونيه سنة ١٩٣٥

فيه لو أحتوى كل ذلك الهواء المنعش فى صدرى الملتهب .

وفى طريقى مررت بالفلاحين . . . جيش مصر العامل القنوع ، وكنز رخائها ونعمتها ؟ فأدركت مقدار إهمالنا هذا الفلاح ، وتنكرنا له وإنكارنا إياه ؟

الفلاح المصرى . . رمز الشجاعة والكرم ، حتى ليجود بلقمته التى يتبلغ بها ، ومثال النخوة والإيثار ، تتمتع نحن على حساب دمائه وقوته وساعده ، ثم لا يضج بالشكوى ، ولا يبدى التذمر والثورة ، صورة الرضاء والقناعة ، يعمل طول يومه ثم تكفيه الكسرة اليابسة ، ابن الطبيعة والفطرة ومثال الصبر والتقوى والإيمان .

* * *

فلاحنا المسكين كم نظلمه !

منذ دبت الحياة فى وادى النيل ، والناس ينظرون إلى نهر النيل الذى تخفق فيه ومنه الحياة ، نظرة الإكبار والدهشة تسامى هذا الإكبار حيناً من الزمن إلى درجة التقديس والعبادة ، وارتفع إلى حد اليقين بأن حياة الملايين من سكان واديه ، تكمن فى مياهه الدافئة العجيبة ، الخافقة الغنية .

وبين تقديس آبائنا لمياه النيل ، وعظم تقديرنا لفائدة النيل ، جحدنا اليد العاملة التى تستغل الحياة الكامنة فى مياه النيل ، وألهانا ذلك السحر العجيب الذى ينفثه النهر فى صميم الصحراء الملتهبة ، فيجعلها جنة ناضرة ، عن ذلك المخلوق الذى أظهر عظمة النيل ، وأتاح السبيل إلى تحقيق المعجزة . . . معجزة وجود الجنة المصرية بين ذراعين ملتهبتين من الرمال التى تغلى الدم وتصهر العظم !

وإلا فليمض الفلاح بعيداً ، هل يكون النيل بعده إلا دموعاً تسيل على الشاطئين فى كرم وإسراف ، كأنما تبكى ابن النيل البار ؟ !

* * *

الفلاح المصرى !

اليد الكريمة العمياء فى كرمها ، تعمل وتشقى حتى تحصل على أشهى الخيرات ، ثم تنثرها على بنى وطنها الجاحدين ، ولا تنظر هل فيمن يتمتع بثمرة كدحها عدو جاحد ! فما أبلغ هذا العمى الكريم ، وما أنبل ذلك الكرم الأعمى !

ساعد مصر وعضدها الأقوى ، وابنها القنوع البار ، والجواب الساخر اللاذع لمن يقول إن من يزرع يحصد !

يا رحمة الله ! كم زرع فلاح مصر منذ دبت الحياة فى وادى النيل حتى الآن ! وكم يزرع وكم يجد ، فهل حصد الفلاح ؟ أجل حصد ولكن لكل الناس إلا له ولأولاده ، إنه يجهز الوليمة دائما لبطوننا النهمة ، لا لبطنه الجائع المحروم .

النشاط الذى لايفتر ، والجسم الذى لايستقر ولا يهدأ ، والآلة التى تعمل ولا تقف ! ولكن ما الذى جناه ويجنيه ؟ الطعام يتبلغ به ؟ جرعة الماء النظيفة يرتوى بها ؟ الكساء السليم يستتر به ؟ اللهم فاشهد . . .

لقد يمضى النهار طويلا بطيئاً كأنه عمر من الشقاء ، وكل ماينالله الفلاح المسكين قرصان من أرغفة الذرة الجافة وبضعة أعواد من حشائش الأرض مهما تفننا فى تسميتها (شيكوريا ، جعضيد ، جلاوين) فلن تزيد على الحشيش الذى نشتريه للأرانب .

وأما المياه ، ففى كل جرعة يتناولها آلاف الجراثيم ، تعمل معنا على استنفاد جهود ذلك المخلوق ، واستلاب قواه ، وتأتى فى مهل على ما احتازه من جلد واصطبار ،

وتأبى عليه أن ينعم حتى بلقمته الجافة القذرة ! ولباسه ؟ أقسم غير حانثة ، أن منه مالا يكفى ولو لستر العورة !

* * *

ذهبت إلى الريف . . .

كانت الأرض تتفجر بالحياة ! حتى لتكاد قطراتها تنز على سطحها . . . امتلأت الأرض شبعاً وريا فبدا سطحها يهتز نباته حياة وجمالا وسحراً ! وبدت الأشجار فى عنفوان شبابها وقوتها مثقلة بأثمارها الشهية الحافلة بذخر حلاوتها وقد أثقلها الحمل فأحنت رأسها فى حياء العذارى وارتعشت كلما لامسها الهواء أو غردت فوقها الأطيار تغريداً يملأ المكان سحراً وفتنة وجمالا !

دنيا حافلة بالروعة ، وحياة ممتلئة بالحياة !

لقد رواها النيل !

نعم ، ولكن لولا اختلاط الماء بعرق الفلاح المسكين لما كان لهذه الجنة الناضرة حياة ، ولما كان للأرض بالماء اكتفاء !

وغذاها الغرين والسماد !

أجل ، ولكنه غذاء جاف ما كانت الأرض لتهضمه

إذا لم يمزج بعرق الفلاح ولولاه إذن ماقيمة الماء، وما نفع الغذاء؟

وهذه الأشجار الفارعة الهيفاء، وتلك الأرض المكتنزة الحية. هل فكرنا فى ثمن حياتها الذى دفعه الفلاح؟

لا: ولم التفكير وفيم العناء. مادمنا نرى خيرات الأرض تملأ الأسواق ناضجة شهية؟!

لقد تثمر الأرض أشهى الثمرات وأطيب الفاكهة، وأغذى الطعام، فيجمعه الفلاح وبنوه، ويذهبون به إلى الأسواق لا إلى الدار، ويتعامى المسكين عن نظرات بنيه الجائعة المحرومة، تحملق فى ثمرة جهادهم فى لهفة وعجب بالغين!

وقد تعبث أيدى صغاره بالثمر الشهى الذى لم يتذوقوه، وتحدثهم نفوسهم الطفلة بتذوقها ولو بدافع غريزة حب الاستطلاع، فيمنعهم أبوهم متكلفا الجد، متغافلا عن الشهوة المختلجة فى أعينهم. وفى قلبه حسرة أليمة لولا المداراة لانفجرت ثائرة هدامة، وفى عينيه دموع حبيسة لولا الحياء لسالت وانهمرت غزيرة ملتهبة!

يقتلهم الجوع وأمامهم الطعام الشهى ، ثم لا تستثيرنا حالتهم ، نحن الذين نتكلف الأسى والحزن حين نردد قول الشاعر :

والعيس فى البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول !

لطالما أجهد الطفل جسمه فى مساعدة أبيه ! يسوق الحمار إلى الحقل عشرات المرات فى اليوم ناقلا السباخ ، تحت لهب الشمس المحرقة ، وفى قسوة البرد العاتى ، ومتى جاع مد يده الشاحبة النحيلة إلى جيبه ، يتناول لقيمات الذرة الجافة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولقد نراه ونرى الحمار قد أثقله الحمل ، فنثور للحمار ، ولا نرحم الطفل المسكين!

فما أعجب رياءنا ! الحمار أكرم لدينا من الفلاح ! والحيوان ينال من رحمتنا مالا يناله أخونا الإنسان ! !

* * *

فى تمتعنا بجمال الريف وجلاله ، وفى إعجابنا بالزرع الحى النامى ، ننسى هذه المخلوقات الشاحبة الهزيلة ، تتحرك كالأشباح المترنحة بين الأشجار النامية الخضراء ، ونتعالى عن النظر إلى تلك الوجوه الصفراء ، وهذه الأجسام الذليلة المسكينة ، تخدمنا فى صمت أليم ، وتبذل قواها قطرة

قطرة فى سبيل تمتع بطوننا الشرهة التى لا تشبع !

والفلاحة فى دارها أيضا ؟ ! تصنع الزبد والسمن والجبن وتربى الطيور وتعتنى بالبيض ، حتى إذا ما حان موعد سوق القرية ، جمعت هذه الأشياء فى حسرة أليمة ظاهرة ، لأنها تعلم مبلغ اشتهار بنيها لهذه الأطعمة ، وليس للمرأة الضعيفة مثل جلد الرجل ومداراته ، وباعتها فى السوق ، واستبدلت بها كمية أوفر من الشحم الردىء ، والزيت الرخيص ، كما باع زوجها القمح فى سبيل مقدار وافر من الذرة !

وبين تجلد الأب الفلاح ، وجزع الأم الفلاحة ، يقف الأطفال ذاهلين مبهوتين ، لا يفهمون لماذا يأكل الناس دونهم ثمرة كدحهم ، ولا تساعدهم عقولهم الطفلة على فهم هذا الظلم المرهق !

فيا لله ! لشد ما نرهق عقل هذا الطفل ، ولشد ما نظلم الإنسانية فيه !

* * *

هذا هو الفلاح فماذا فعلنا له ! ؟ ؟

لقد تعاونا حكومة وأفرادا على التفنن فى ظلمه وإرهاقه ،

فهو لا يسلم من سخريتنا وازدرائنا . وننسى أن هذه اليد القذرة — كما نسميها ! — قد مهدت لنا سبيل الاستمتاع بأشهى الخيرات .

أما الحكومة فلا هم لها إلا إرهاقه بمختلف الضرائب ، فهل نقت له المياه ؟ أو عالجته من أمراضه أو أصلحت مسكنه أو علمت أولاده ؟ اللهم لا شيء من هذا كله ، فمساكن الفلاحين لا تعرف الشمس ولا الهواء . وطرق القرية تعلوها الأتربة وتملؤها الأقذار ويعمها في الليل الظلام ، والمياه التي يشربها قذرة ملوثة تحمل له البؤس والشقاء !

والمضحك المبكي أن الحكومات تأخذ من مال المسكين ، لتمهد لنا معشر سكان المدن ، حياة ناعمة مترفة ! ترصف الطرق وترشها وتنظفها ، وتفتح المدارس ، وتنير الطرق ، وتكثر من المستشفيات ، وتتمتع وإيانا على حساب فلاحنا المسكين !

يحلو لي أحيانا أن أفكر في مصير ميزانية الدولة ، إذا حذفنا من أبوابها ضرائب الفلاح ، وأجور نقل محصولات الفلاح ، ورسوم تصدير ما ينتجه الفلاح .

* * *

ارحموا الفلاح . . .

إلى القرية يجب أن نتجه ، وفى إصلاحها يجب أن تبذل الجهود ، والحكومة مسئولة أولا وآخرا عن انحطاط حال القرية ، وعن الشقاء المخيم عليها ، وعن البؤس الذى يعيش فيه المزارعون ، ولئن لم يكن لها يد فى جوعهم وحاجتهم ، فعليها تبعة اللوم فى قذارة المياه ، وانحطاط المساكن وانتشار القذارة والجهل والأمراض .

يظهر لى أن الحكومات المتعاقبة تتجاهل القرية حتى لتكاد لا تشعر بوجودها ، فليت شعرى أية يد رحيمة حازمة ، تلك التى ستوقظ الأمة من تغافلها ، وتنبهها الى واجبها ؟ !

آخر لقد عدت من القرية ، دخلتها بائسة تعسة ، وخرجت منها أشد تعاسة وشقاء ! وعفا الله عن الطبيب ، نسى أن فى الريف ما يشوه جماله ، وأن بجانب فتنته بؤسا يبعث الحزن من مكمنه ويثير الأسى من أعماق القلوب !

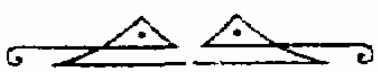

جرعة ماء !!

شعرت بالخجل يشيع فى جوانب نفسى حين انتهى إلى حديث أفراد العائلة التى أضافتنى فى القرية ، يتناقشون فى فناء الدار حول طعامى — كما توهمت — وأحسست بحزن أليم يهد كيانى حين سمعت صديقتى القروية تقول :

لا . . . أنتم تقسون على بالحاحكم ، أنا أخجل من تقديم مثل هذا إليها !

ارحمونى . . .

وقال أبوها الفلاح الشيخ فى صوت منخفض :

أؤكد لكم أننى لن أجرؤ على مواجهتها وفى يدى مثل ذلك الإناء القذر !

كيف تنظر إلينا بعد الآن ؟

وقفزت من القاعة فى حزن مجنون ، وتفرست فى وجوههم الشاحبة الذليلة ثم قلت فى تأن :

نشرت فى الأهرام الغراء فى ١٢ من يوليه سنة ١٩٣٥

حاصلات الجزار

ـ أنتم تخجلونني وتعذبونني دون أن تشعروا ! كيف يطيب لى المقام بينكم ، وأنتم كما أرى تخجلون من تقديم طعامكم إلى ! كأنني ولدت وفى فمى ملعقة من ذهب . . وفروا على أنفسكم هذه المشقة ، فلست أكذب حين أؤكد لكم أنى أمقت التأنق فى الطعام . فكيف به إذا صحبه التكلف ؟ أشعرونى بأنى فرد منكم حتى لا أحس بثقلى عليكم ، وهذا وحده لعمرى كرم مبين . . واذكروا دواماً أننى لست ثرية ولا مترفة !

شىء آخر ، أريد قليلا من الماء البارد ، فإنى متعبة مكدودة أحس بظمأ شديد .

وصمت وصمتوا : ولم يجرؤ أحدهم على رفع نظره إلى ، وأخيراً عثر كبيرهم على لسانه فقال وهو يتكلف ابتسامة كاذبة حزينة :

هذه هى العقدة ، فنحن لا نملك ماء ! وفى هذا نتناقش لاحول طعامك كما تتوهمين .

قلت وأنا لا أكاد أفهم : ماذا تعنون يا أصحابى ؟ أو لا تشربون أنتم هنا ؟

قال الشيخ : نحن نشرب والحمد لله . ولكنه ماء قذر ملوث . . وليس لجسمك مناعة أجسامنا واحتمالها . تلك الأجسام التى تعودت شرب هذا الماء .

وقالت الصديقة وهى تكاد تبكى : لقد ظلمتنى يا أختاه بهذا الموقف الحرج ! لماذا لم تخطرينا قبل قدومك ؟ كنت على الأقل أذهب إلى بنها وأشترى « نوى المشمش » لتنقية المياه .

وخانتنى قواى ، فمضيت إلى القاعة أتعثر فى خطاى لا تكاد تحملنى قدماى ، وارتميت على الحصير وأنا أردد فى ذهول : فى مثل هذا المكان يتوهم الطبيب أننى أستعيد هدوئى وقواى ؟ يابؤسهم ويابؤسى بهم ! ثم تذكرت المثل الذى ترددده أمى دائماً « يابختها اتبعها ، أينما راحت روح (اذهب) معها »

لا يجدون ماء صالحا للشرب ؟ ! ارحمهم يا الله !

وتناولت الكوز وأنا لا أشك فى أننى سأقذف بمائه فى فى جوفى بلا تردد ، لأثبت لهم تواضعى أولا ، ولأطفىء ظمئى الملتهب ثانياً . . ولكن شجاعتى الكاذبة تبخرت حين نظرت فى الماء .

كدت اسألهم: هل تثقون فى أن هذا ماء؟ فليست له تلك الشفافية المغرية التى تطفىء اللهب ، وهذا اللون الأسمر الضارب إلى الحمرة يذكرنى بما حفظته وأنا طفلة غريرة فى درس « خواص الماء » الماء سائل شفاف لا لون له ولا رائحة .

سألتهم من أين أتيتم به ؟

قالت الصديقة : من الترعة .

من الترعة يشربون كما تشرب البهم والدواب وكما تشرب الأرض . وفى الترعة يغسلون أوانيهم التى فيها يأكلون ، وينظفون الخضر إذا تفضلنا عليهم ونصحناهم بغسل الخضر قبل أكلها !

قطرة من هذه المياه قد تحمل ملايين الجراثيم والديدان يخرج أعلبها مع براز المصابين بالبلهارسيا والانكلستوما - وهم جل أهل القرى باعتراف مصلحة الصحة - فتعوم على سطح الماء ، وتمكث هناك فى تحفز وترقب وانتظار ، حتى إذا ما أحست بحرارة أجسام إخواننا الفلاحين وأخواتنا الفلاحات ، التصقت بها تنشد الدفء وتطلب حقها من الحياة ، وفى بطء تخترق جلدهم الضعيف فى

طريقها إلى الأمعاء ، حيث تكمن هناك ، تتوالد وتتكاثر . وتتغذى بدماء الفلاح المسكين بينما لا يجد هو ما يغذيه ! ولا تصدقوا أن قرويا واحدا أو قروية واحدة تستغنى عن الذهاب إلى الترعة ، إلا فى النادر القليل .

وهم يعلمون يقينا أن جرعة الماء تحمل إلى أجسامهم الداء ، ولكن ماحيلتهم وأين المفر ؟ لم يخلق بعد ذلك الإنسان الذى يموت ظمأ وأمامه ماء ملوث يرفضه . . . وهم قبل كل هذا بنو إنسان ، يحملهم التشبث بالحياة على قبول آلامها ، فيجب ألا يخدعنا هذا التشبث منهم عن حقيقة مرة دامية وهى :

« إن الفلاحين يتشبثون بحياتهم ولا يقدمون على التخلص منها لأنهم متدينون ، ولأن هذا منشؤه غريزة الحرص على البقاء وليس حب الحياة لذاتها »

وأى شىء فى حياتهم يحب ؟ إن الرجل منهم ليشقى طيلة يومه وينهك جسمه ، بينما تبخر حرارة الشمس المحرقة ما أبقته الأمراض من قطرات قواه . وليته بعد هذا كله يجوع فقط ، ويسلم من قسوة المحصلين ، وسخرية أهل المدن ، وظلم المرابين ، وعار الدين وفتك الدماء ، وعذاب

النظر إلى الدودة وهى تلتهم ثمرة كده وتعبه أمام عينيه ، وتترك شجيرات القطن الخضراء التى ارتوت بعرقه وقوته ، عيدانا مجردة ، ينفطر لها قلب الفلاح ، وتتخاذل أمامها قواه.

يا رب يا أرحم الراحمين ، إنهم يشقون لنا ويكدون فى سبيلنا ، ألئن رفضوا العمل وظلوا عاطلين ، أفتسوء حالهم عما هى عليه الآن ؟ !

* * *

حين يدركنا العطف على الفلاحين والرثاء لهم ، نردد بضع نصائح صحية ، ثم يتنفس كل منا تنفس الارتياح ، ويصمت بعد أن أدى واجبه (! !) ومن هذه النصائح « اغسلوا عيون الأطفال دائما بالماء »

وفى القرية شاهدتهم ينفذون النصيحة مخلصين ، ولكن بماء الترعة . فهم يغسلون تلك العيون المصرية الجميلة التى تفيض سحرا وحيوية ، بتلك المياه القذرة الملوثة .. فتحمل تلك المياه بعد ملامستها الأعين ، كل ما فيها من فتنة وجمال.. ويا لفداحة الألم حين يلمح الإنسان تلك الزهرات الناضرة البريئة ، يفتك بها الرمد ، ويفترسها الصديد ، ويذهب ببهائها الماء القذر ، وبنورها العمى الحزين !

وللأتربة المتصاعدة دواما من طرق القرية التى تجهلها الحكومات ، يد لا تنكر فى مضاعفة الداء . .

ولذلك أصبحت مصر بلد العميان ، لأن أمتها عن الفلاح عمياء !

كما افترست البلهارسيا والإنكلستوما ملايين الأجسام المصرية القوية القادرة على خدمة مصر ، لأن الحكومة تضن عليها بجرعة ماء !

حدثت نساء القرية طويلا فى جمال أعين أطفالهم الذى يذهب به الرمد . فكان جوابهن الباكى الحزين : مادمنا نرى موضع أقدامنا . فالشكر لله ! يا لصدق الإيمان ، ولكن ما أهول هذا الشقاء !

هذه الطفولة الشقية المحرومة ، وتلك الأمومة الذليلة المعذبة كيف نجرؤ فى مصر على تغافلهما ؟ !

إن فى هذه الأجسام الذليلة ، دليلا على أننا سائرون إلى نهاية محزنة ، ورحمة الله لمصر يوم تفتح عينيها فترى أعضاءها العاملين قد فتك بهم الداء ، وسممهم الماء ، وذهب بقوتهم الجوع والذلة والشقاء !

ويومئذ ما أتعس مصر بأبنائها الفلاحين الأشقياء !

هؤلاء الذين لو منحوا الفرصة ليعيشوا حياة ممكنة ، لأمدوا مصر بأمتن ثروة وأقوى حياة ! ورحم الله حافظ بك ابراهيم شاعر الشعب والبؤساء الذى قال :

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا

ونحن نمشى على أرض من الذهب؟

فياحافظ ! لقد مرت على وفاتك سنوات ثلاث ، لم يذكر القوم فيها آمالك وآلامك . وهاهى الأرض توشك أن تصير كالماحلة الجرداء ، لأن اليد الوحيدة القادرة على إخراج الذهب ، أضحت هزيلة ضعيفة ، ونحن عنها لاهون ولو أنصت القوم لسمعوا صوت قيثارتك الحزينة لا يزال يرن فى أفق الوادى شاحباً ، داويا باللوعة والأنين .

* * *

لقد وجدتها !

هكذا صاحت صديقتى الفلاحة وهى تحمل فى يدها الحطب وتوقد النار ، لتغلى المياه قبل أن أشربها ، ولمح أبوها حرارة الظمأ وشهوة الشرب تلمعان فى عينى فغاب برهة ثم عاد يقدم إلى « بطيخة » أروى بها الظمأ .

يا للسخرية اللاذعة الأليمة .

ذكرت فى ألم مستبد ، تلك الأحواض المنتشرة فى أنحاء المدن . ليشرب منها الحيوان . وتمنيت لو أن حوضاً واحداً ينتقل إلى القرية ليشرب منه أخونا الفلاح . الإنسان !

* * *

بجانبى الآن رسالة موقعة باسم ـ بنات القرى ـ تفضلت (الأهرام) فحولتها إلى . وإنها لرسالة حزينة جياشة الأثر ألمح فى سطورها النارية الملتهبة ، ذلك العذاب الأليم الذى يعجزنا ترفنا عن تخيله . وتبدو كلماتها أمام عينى متراقصة كأنما تترنح ترنح الأشباح .

« هيه يا ابنة الشاطىء ؟ كم نحن بحاجة إلى قلمك فدعيه يتكلم ولا يغلبنك الأسى علينا فتسكتى ! لقد لمست حقاً بزيارتك لنا موضع بؤسنا وشقائنا ، قولى لولاة الأمور يا ابنة الشاطىء الماء . الماء الماء ؟ فقط هذا ما نطلبه ، قولى لهم وزيدى فى القول إن الماء فى القرى هو أصل البلاء الماء الذى يحمل إلى أجسامنا الداء ، لقد انتابنا منه ما يكفى لقتلنا أفلا يكفى كل هذا الزمن ؟ نعطيكم من دمنا وأرواحنا ما فيه

سعادتكم ، فهلا تعطونا مقابل ذلك ماء صافياً ؟ يا لله كم تظلمونا حقا »

وهأنذا أصرخ يا أخواتى وأسأل الحكومة هل يعجز رجالها عن تمهيد الماء الصافى لرعاياها ؟ أنا لا أفهم السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية المتواضعة ، ولكن الذى أفهمه أن إخواننا الفلاحين يجب أن يعيشوا ، وأن ينالوا جرعة الماء التى يطلبونها .

لقد قرأت منذ عهد بعيد ، أن لجنة اجتمعت لبحث مسألة الماء فى القرى ولكنى قليلة الإيمان بفائدة اللجان فى مثل هذه المسألة الحيوية ورأيى أن المسألة أخطر من أن تبت فيها لجنة يجتمع أعضاؤها ساعة وينصرفون على أن يجتمعوا فى فرصة أخرى ، إننى أريد علاجا حاسما شافيا .

إن عمق شعورى بشقاء الفلاحين ، يشل ملكة التفكير فى دماغى ، ولكنى أفهم أنه قد آن الأوان لأن تنشأ فى مصر البلد الزراعى المحض ، مصلحة دائمة تدعى ـ إصلاح القرية ـ وأعرف أن الحكومة التى استطاعت أن تمهد لسكان المدن ماء نظيفا مرشحا ، تستطيع أن تفعل مثل ذلك فى القرى تدريجيا بحيث تبتدئ بأشدها ازدحاما

بالسكان وإلا فهل قدر لهؤلاء المساكين أن يعيشوا إلى الأبد ، تلك الحياة التى لا نرضاها للحيوان عندنا ؟ اللهم فارحم .

* * *

وبعد فيقينى أن ولاة الأمور فى مصر لن يضنوا على ظامئ بجرعة ماء لو لم يجدها لمات ظمأ أو تناول ماء يحمل الداء ، ولا على هؤلاء التعساء بنظرة عطف ، لو لم يلمسوها فى وجوهنا لجحدوا وأنكروا الرحمة فى قلب الإنسان .

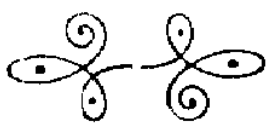

الجمال المشوه الحزين

لعل مضيفتى القروية أحست بكبريائها جريحة مكلومة حين لمحت مرارة الفشل وألم الخيبة يبدوان فى قسوة على وجهى حتى ليجوز فى الرثاء ! فلم يكد يستقر بنا المقام حتى علاها ذهول واجم حزين ، ثم أشرق وجهها فجأة ودنت منى وهى تقول فى نبرة هادئة :

ـ أشعر فى أعماقى بأنك لم تجدى فى الريف الراحة التى كنت تبغين ، ولكن فيم اليأس ؟ يجب ألا يصرفك أول الشىء عن آخره ، وإن وراء هذا الشقاء الذى يبدو لك فى القرية ، جمالا فاتنا ما أشك فى أنه سيفتنك عن القاهرة بضجيجها وضوضائها ، وعن الجيزة بسكونها وجمالها !

وكانت الصديقة تعلم أنى لم أقصد الريف لأقضى فراغا ضقت به ذرعا ، أو أعالج مللا شعرت به من حياة تجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هى رغبة الطبيب التى لا ترفض ، وأمره الذى لا يرد .

وسألتها فى رفق حنون ماذا أعددت لنا فى القرية

يا أختاه ؟ قالت : حين تتثاءب القرية بعد ليلها المظلم أى ظلام . وحين تدب الحياة فى كل الكائنات بها ، سيوقظك حفيف الشجر وخرير الماء وتغريد الطيور التى هى أسعد طيور العالم جميعا ! وسيذكرك هذا بضجيج العربات والترام والباعة المتجولين فى القاهرة ! وفى لحظة قصيرة تكونين قد لبست الثوب القروى الواسع الفضفاض ، متحررة من قيود أزياء المدينة وما تسلب من وقت وتضيع من فائدة صحية محققة ، وبين الحقول صباحا نسير ، نستنشق بأعيننا وعقولنا وقلوبنا جمال الشروق الرائع ، ونملأ صدرينا هواء طيبا باردا . . وتلمحين عن كثب كيف تنهض القرية كلها من الرقاد ، وكيف تبعث من موت يفرضه عليها الطبيعة والظلام ، وتفتح ذراعيها للنور والهواء . . . تلك تعزية صادقة . . . هل تنكرين ؟

* * *

وأشرق الصباح رائعا . .

كان أجمل شروق شاهدت ، يطلع على أتعس قوم عرفت ! كانت الأشعة الذهبية الصفراء تتغلغل بين النباتات الخضراء فتمنحها الدفء والحياة بما يكمن فيها من سحر ،

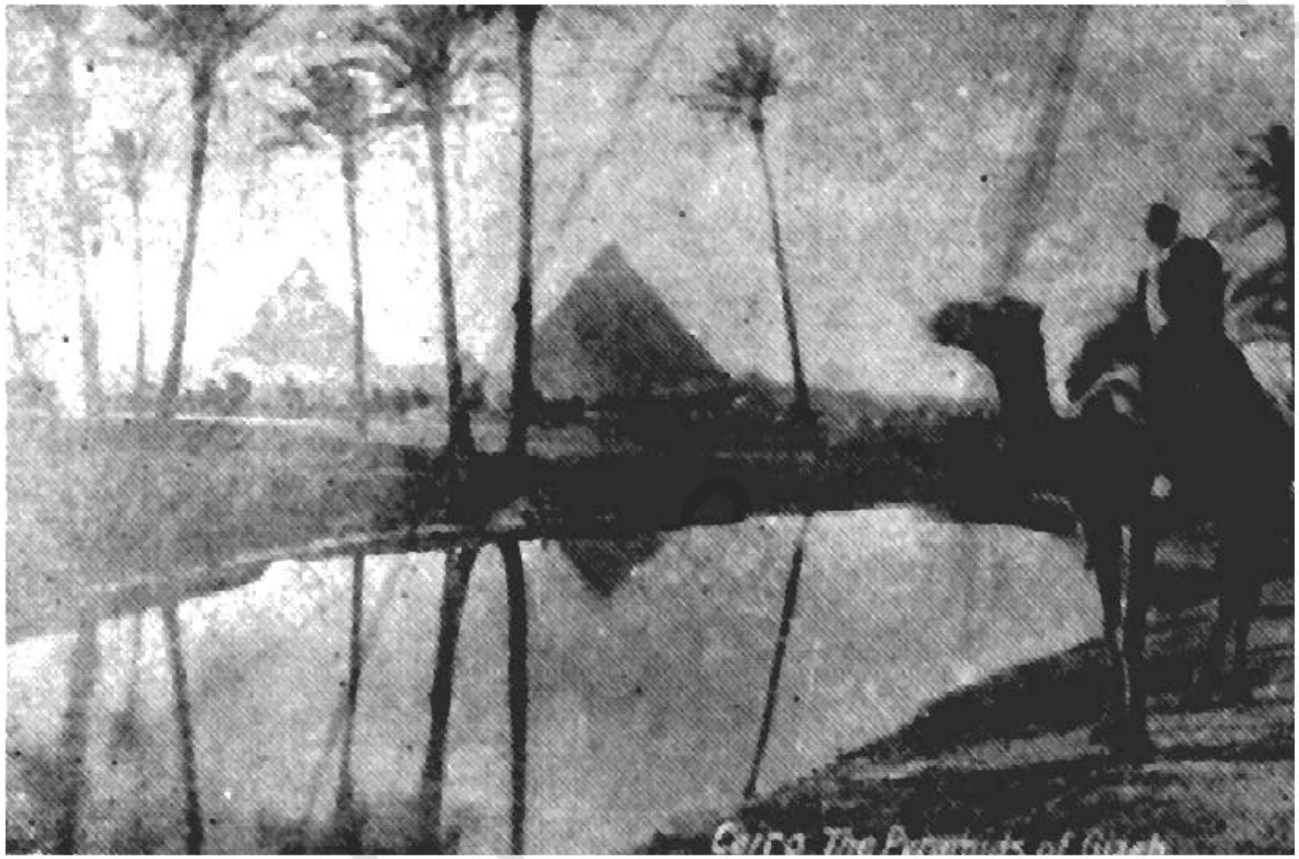

الخلود والروعة والحياة فى

أهرام مصر وريفها ونيلها

وتلمس سطح الحقول بعصاها السحرية ، فتحدث فيه رعشة حية ، تبدو فى موجات متتابعة متلاحقة ، تذرع الحقول جميعا فى حنان بالغ عجيب ، بينما تلتوى القنوات بين الحقول وتنساب ، فى خرير متسق هادئ ، له نوع من الموسيقا الغامضة الساحرة !

إن مجرد التفكير فى متاعب النفس وآلام القلب ، نوع من الجناية والامتهان لقدسية ذلك الجمال ، وفيه انتهاك لحرمة تلك الفتنة الرائعة !!

ولكنى نهضت ـ ولا أدرى كيف وقتئذ ـ إلى التحرر من أثر ذلك السحر والتفت حوالى أتأمل وأرى عجبا ...

بجانب هذه الأشجار الهيفاء الحية المثقلة بأحمالها ، أجسام نحيلة شاحبة مثقلة بالآلام والمتاعب والأمراض ، تبدو كأنما تدب إلى القبر ، وتهدى إلى حياتنا العاجلة آخر أنفاسها .

وفى جوار هذه الحقول التى تنبض بالقوة والحياة والشباب ، برك راكدة ، تحمل فى ثناياها وعلى سطحها عوامل القضاء على فلاحنا المسكين ، وتكاد أبخرتها العفنة

تسمم الهواء الذى يستنشقه . وتطغى على عطر الرياحين ، وعرف الورود ، وشذا الأزهار .

وهذه الطيور التى سعدت بموسم الحصاد ، وأحست بالربيع وهو شباب الدنيا ، يبعث فى أجسامها النشاط وشباب الحياة ، تملأ الفضاء بتغريدها الحنون ، كأنما هى فرقة موسيقية اتحدت نغماتها واختلفت أصواتها ، يكاد الإنسان ينسى ما فى صوتها من حنين وحنان ، بتلك الجيوش من البعوض والذباب ، التى تطن فى أذنه بشكل مزعج مخيف ، كأنما تذكره بالحقيقة المرة القاسية التى اعترف بها الدكتور محمد حلمى السعيد مدرس علم الصحة فى كلية الطب فى قوله : « لقد أصبحت الملاريا خطرا داهما على حياة الكثيرين من أهل جلدتنا ، حيث وجد فى صيف العام الماضى أن ٦٥ ٪ من سكان بعض القرى فى شمال الدلتا مصابون به ، وهو لعمرى رقم هائل ينذر بسوء العاقبة إذا لم تضاعف الجهود فى استئصال هذا المرض الذى اكتسح قرى بأكملها فى أواسط أفريقيا ، فأصبحت قاعا صفصفا بعد أن كانت آهلة بالسكان »

وأما المياه ذات الخرير الهادىء الحنون ، فيشوهها

ما تحمل من جثث الحيوانات وبقايا القاذورات ، بينما يتكاثر على حوافّ الترع . جموع الفلاحات زرافات ووحدانا يغسلن الثياب المهلهلة، وينظفن الأوعية النحاسية التى يعلوها الصدأ ، ويتجملن بعمل ـ التواليت ـ بمياه الترعة ، ملبيات طبيعة المرأة التى لا تتأثر بزمان ولا مكان . ويملأن الجرار ، ويتركن فى نفس الرائى أثرا من الحزن عليهن عميق القرار .

بقى من جمال الريف ، شمسه الساطعة التى كثيرا ما يحدثنا عن فائدتها الأطباء ، وهواؤه الرحب الطلق ، الذى لا تحجبه المبانى المتراصة العالية الذاهبة فى السماء ، وأعترف بأن الفلاح ينال من هذين المنبعين ، شيئا من القوة ، يعينه على مقاومة شقاء معيشته ، واحتمال ما يفتك بجسده من أمراض ، ولكن فى آخر النهار ، حينما يغادر الفلاح الطبيعة الحانية عليه ، الرفيقة به ، ويأوى ودوابه جميعا إلى تلك الأبنية القذرة المظلمة ، التى لا يجوز لنا أن نطلق عليها اسم المسكن أو المأوى ، ضاع أكثر ما اكتسبه من أثر الشمس والهواء وتبخرت تلك الكمية الضئيلة من الصحة التى أفادته إياها الشمس ، فى الأبنية الطينية الواطية المسقفة بالقش والغاب والتى لا يرتفع أكثرها عن سطح الأرض إلا قليلا ، ولا

تعرف الشمس ولا الهواء ، سبيلا إلى داخلها ، اللهم إلا شعاعا ضئيلا من النور ، ينفذ من كوة صغيرة فى الجدار ، ليلقى الضوء على ما يخفى الجدار من تعاسة وعوز وشقاء ، يحتملها الفلاح صابرا قانعاً ، لا يئن ولا يجأر بالشكوى والاحتجاج ، بينما تسير بنا الأيام إلى مستقبل محزن رغم ما يكتنفه من غموض ، وإلى نهاية أليمة إذا ظل ولاة الأمور يتجاهلون وجود الفلاح ، ذلك الاسم الذى يجب أن يصبح رمزاً للشقاء والحرمان ، لا كناية عن بقرة حلوب لا يفرغ اللبن من ضرعها ، تملأ خزانة الدولة مالا ، وأسواقها خيرات وغذاء شهيا طيبا !

إن لأكثر أغنيائنا وحكامنا ـ إن لم يكن لهم كلهم ـ مصالح تربطهم بالريف ، والفلاح المسكين هو اليد الوحيدة التى تحيل أراضيهم الزراعية بإذن الله ذهبا نضاراً يتدفق فى خزائنهم ويتيح لهم ماهم فيه من نعمة ورفاهة عيش ، فإذا أثار دهشة أحدنا ، أن الفلاح يشقى فى أمة زراعية ، يقوم على أمرها كبار الملاك الزراعيين ، وإذا تساءل الإنسان كيف لا يكون هذا الاتصال سببا فى تعرف الأغنياء بشقوة الفلاحين البؤساء ، وبالتالى سببا فى سعى الأغنياء

فى تهيئة حياة صالحة لهم . إذا دهش المرء فإن دهشته تزول ، حين يقرأ تلك الحقيقة الهائلة الصادقة ، التى ذكرها اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة : « أتمنى أن يتعلق الشباب المصرى ببلاده تعلقاً شديداً ، ولن يكون ذلك إلا بحب الريف ، وأنت تجد الشبان الموسرين لا يعرفون موقع أطيانهم ، ولم يذهبوا قط إلى عزبهم ، ويجهلون اسم الخولى الذى يحرس أموالهم »

وهكذا نحن دائماً ، نلهو عما يحيط بنا من أخطار ، ونجهل عن مصر وأهلها ، حقائق يعرفها غير المصريين ، ولا نزال فى لهونا حتى يتحدث الأجانب بحمقنا وجهلنا وضعفنا ، وهذا الحديث هو ـ مع الأسف الشديد ـ إنذار من الحياة يلوح لنا ونحن فى رقادنا مستسلمين لأحلام الخيال ، كما تسوق الطبيعة الرعد والبرق ، إنذاراً بالعاصفة. فهل آن لنا أن نستيقظ ؟ من يدرى ! !

وراء الستار

كان عجيباً من صديقتى القروية أن تلح فى إخفاء نقودى وحلي طالما أنا فى القرية ، وأن تنكر على خروجى إلى الطريق وفى معصمى ساعتى ذات السوار الذهبى . وفى أصبعى الخاتم الماسى الذى لا يفارقه ! وكلما هممت بالسؤال والاحتجاج احتمت من إلحاحى بالصمت والمراوغة . وأشارت إلى أن أسكت فأمتثل لأمرها .

سألتنى ذات مساء : أين تضعين حليك ونقودك ونحن نيام ؟ .

ـ أين ؟ فى يدى يا أختى وعلى هذا الكرسى فى جوارى ، لا زلت أعجب من اهتمامك بإخفائهما ألا تتكلمين ؟

ـ كان على أن أتكلم ، لولا أنى أحب ألا أجفعك فى ما بقى لك من هدوء الريف ! لقد تكشفت لك زيارتك لنا عن شقاء شعب عليك حياتك وسلبك راحة البال وصدق

نشرت فى الأهرام بتاريخ ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٣٥

اليقين . أفتحسبين أنى أجرؤ على إزاحة الستار أمام عينيك عما خفى عليك من شقاء الريف ؟

ـ ولكنك بكتمانك تثيرين فى نفسى ألماً عاصفاً غلاباً لا طاقة لى به !

ـ يا أختاه ! إنك تلمحين فى القرية أقسى أنواع الفقر والعوز والشقاء، ولكن لو قدر لك أنك تتغلغلى فى صميم القرية. ولو كشف لك الحجاب عن قلوب القرويين، لانكشف لك ستار الشقاء عن مشهد أفظع هولا ! ولآلمك أن يستبد بالقرويين ظلم جرىء كأن لم يكف ماهم فيه من فقر وبؤس ! إن فى القرية لصوصاً ياصديقتى ! أنا أعرفهم . وكل فرد فى القرية يعرفهم ، ولكننا لا نملك حيالهم إلا الصمت بل والرضاء .

ـ ما أفظع هذا الرضاء منكم ولكم كما أعلم نفوس أبية !

ـ إنها لا تزال أبية يا أختاه ! وهذا الرضاء منا ليس خضوعا وذلة اصغر فى نفوسنا . ولكنه رضاء من يعلمون حقيقة ظلم البشر ، أو لست القائلة فى قصيدتك « وحى الشاطىء » ؟

يلاقى الهوان فيرضى به ؟ رضاء العليم بظلم البشر ؟ !

إن زعيم العصابة تربطه بالعمدة صلة القرابة . وهو يتحكم فينا معتمداً على هذه الصلة . يسرق ويهاجم ثم لا يسأل عما يفعل . . . . لن أنسى يا أختاه ليلة هاجم اللصوص فيها خالتى ، وهى كما تعرفين تتجر فى الطيور وتمتلك بعض المال وتحيا وحيدة بعد وفاة وحيدها . لقد كنت حسنة الظن بالناس إلى حد بعيد . نشأت فى الريف فألفت بساطته وظلت بعيدة عن دوافع الشر التى تقتحم نفس الإنسان من أضعف ناحية فيه وهى حب المال . فتقذف به وراء الإنسانية وتحيل ضميره قطعة من الحلوى تلتهم فى آخر النهار ! وكنت أسمع الهمس يكثر فى مغامرات لصوص القرية ، وأنصت إلى ما يتحدث به الناس عن قسوتهم واستهتارهم ، لكنى ماقئت أتوهم فيها الإسراف والمبالغة ، حتى ذلك اليوم المشئوم ! لقد هاجمها لصوص أربعة ملثمون فى منتصف الليل . وهمت بالنهوض من فراشها فخذلتها قواها وارتمت على الأرض شبه ذاهلة ! بقيت لها عيناها لتشهدبهما وحشية البشر وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان ! وفى توحش عجيب سلبوها كل ماتملك

من حبوب ومن مال . وتركوا لها ذل الفقر وقسوة المرض وأثر الخوف الهائل !

ـ وبعد ؟

ـ وبعد فلا يزال اللصوص يسطون ويسرقون . ولولا اهتمام رجال كل أسرة بحراسة الدار ليلا بالتناوب لكانت المصيبة أعم !

ـ وعمدتكم نائم فى داره مطمئن لا تقلقه أشباح شقائكم وأصوات ضحاياكم ولا يردعه وجود الحكام والقضاء واحتمال ثورة كبار المزارعين ؟

ـ وما العمدة ياسيدتى ؟ إنه الحاكم المطلق التصرف فى القرية . ونحن صغار المزارعين خدمه المسخرون ! أما كبار الملاك فهو يعرف كيف يرضيهم بأساليب نعرفها نحن ، لأنها على حساب قوتنا وقوتنا !

* * *

وأغمضت عينى ليؤرقنى سهد طويل . وبدت لى متاعب القرويين كأنها سلسلة آلام لا نهاية لها ! لئن استطاع الفلاح أن يحمل أثقال فقره وعوزه بما وهب من قناعة وصبر . فبأى ثمن يحمل وطأة الظلم وهو الكريم النفس الذى يأبى الضيم ؟

فى عهد الإقطاع . وفى صميم العصور المظلمة الوسطى . كان الفلاح خادما لأمير المقاطعة . يزرع له الأرض ويحصد المحصول . ثم هو مكلف بان يعصر كرومه فى معصرة السيد ويطحن حبوبه عنده . وعلى السيد واجب واحد ، هو حماية مقاطعته من الأعداء والفاتحين .

والآن بعد أن اندك صرح الاستبداد بمعاول المصلحين . وبعد أن أعلنت حقوق الإنسان وأصبحت سلطة الحاكم مستمدة من الشعب لا من الحق الإلهى المزعوم . يقوم العمدة غالبا بتمثيل دور السيد فى القرية . والفلاح المسكين لا يجرؤ على شكوى ولا يقوى على احتجاج .

إن دودة القطن مثلا ، فى سبيل تشبثها بالحياة ، لا تميز بين حقل العمدة وحقل الفلاح المسكين ، بل تمضى فى طريقها وسط الحقول لتلتهم النبات النامى الناضر ، دون أن تمنعها عن الحقل الأول سطوة صاحبه وقوة بأسه ، ودون أن يصرفها عن حقل الثانى شقاؤه وجوعه وضعفه .

وفى أراضى العمدة يجتمع آلاف القرويين . يحاربون الدودة وينزعون الأوراق المصابة . وقد نشط إلى جمعهم خفراء القرية . يمر كل خفير فى منطقة معينة وتكفى نظرة

قاسية مهددة من عينيه ، لتنزع الفلاح المسكين من حقله الصغير الذى ينتظر محصوله ليسدد ديونه المرهقة . وليحصل على ما يقيم أود أولاده الجياع . فيترك حقله لترعى الدودة فيه دون رقيب ، إلى حقل العمدة ليحمى ثروته من مجرد النقصان ! والأجر المعروف المصطلح عليه فى القرى هو رضاء العمدة سيد القرية !

وفى مناوبات الرى ، حين يهجر الفلاحون دورهم ليلا . أحوج ما يكونون إلى بعض الراحة من شقاء الفقر والجهاد ، ويسهرون فى حقولهم على حواف الترع منتظرين المياه ، كم يطول بهم الانتظار ! إن المياه محرمة على أراضيهم قبل أن تمتلىء أراضى العمدة وكبار الملاك شبعا وريا وحتى تصيبها التخمة فتلفظ ببقايا الماء إلى أراضى الفلاحين التعساء !

وفى موسم الحصاد ، يخرج الرجل فى الصباح الباكر حاملا منجله ، ومودعا زوجه لتلحق به فى الحقل . ويسير فى الطريق ذاهلا يحلم بيوم يبيع فيه القمح ويشترى رطل لحم لأولاده المحرومين الذين طال تشوقهم إلى اللحم ، وثوبا من القماش لزوجه التى أذلت رجولته وكبرياءه بثيابها المهلهلة البالية ، ولا يزال يحلم حتى يوقظه صوت الخفير ،

ينزعه من أحلامه إلى الحقيقة المرة . ويذهب به إلى حقول العمدة حيث ينتظره القمح النامى ! والويل له إن أبدى ألما أو تذمرا . .

***

ارحموا الفلاح !

إن حياته أصبحت جحيما . طال عليه العهد وهو ينتظر الإصلاح البطىء . وطال به الانتظار حتى ضاع منه الأمل الضئيل الذى كان ينير دجنة حياته الحالكة السواد . ولم يبق له إلا شقاء الفقر ومرارة اليأس وذل الاستبداد !

هناك بعيدا ! فى القرى التى نجهل شقاءها وشقاء من فيها . يفرض العمد نظاما هو أعجوبة الأنظمة فى القرن العشرين . أى بعد مرور ثلاثة قرون على صرخة المصلحين أمثال موليير ومونتسكيو وفولتير ، بأن الحاكم الصالح هو خادم الشعب !

إن العمدة لا تجرى عليه نظرية فصل السلطات التى تجرى على الوزراء وكبار الحكام ، ففى يده سلطة الاتهام والحكم والتنفيذ . والحكومة لا تعلم عن هذا شيئا كثيرا . لأن صغار القرويين لا يجرؤون على الشكوى والصراخ

خشية الاضطهاد والإهانة. بينما لا يجد كبار المزارعين ما يشكون منه لأن العمدة يكلف الفلاحين الأجلاف بدفع ثمن سكوت السادة الأغنياء. وفى ذلك يقول «الفلاح المسكين» فى رسالته إلى بالاهرام الغراء ١٤ - ٨ - ٩٣٥

« لو وقف شقاء الفلاح عند هذا الحد - فداحة الضرائب - لكان الأمر أسهل مما تظن الحكومة ولنادى الفلاح بعالى صوته. الفلاح الصغير فى حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد حضرات العمد ومشايخ وأعيان القرى. فدافعو أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء. ورجال تنقية دودة القطن فى زراعات العمد والأعيان هم الفلاحون الفقراء. وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم فى القرى هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة مساكنهم »

« تذاكر التمثيل والجمعيات التى يتبرع حضرات العمد والأعيان بتوزيعها، تحصل أثمانها من فقراء الفلاحين. وتطهير مساقى الأعيان وتسهيل الطرق لسياراتهم فى داخل قراهم، وفعلة مبانيهم، وخدمة منازلهم ومزارعهم هم الفلاحون البؤساء التعساء. الذين إن اشتكوا أهينوا وإن صرخوا عذبوا »

هذه الصرخة الداوية التى يرسلها « الفلاح المسكين » من أعماقه يجب أن يكون لها صدى فى قلوبنا وفى عملنا . شقاء الفلاح وصل إلى درجة لم يعد ينفع معها علاج الكلام . والفلاح نفسه أصبح لا يطمئن إلى سياسة الوعود الخلابة التى يلوح بها المصلحون . والحاجة ملحة إلى علاج عملى عاجل .

إن التمثيل الحكومى معدوم فى القرية كأنما هى كم مهمل على الهامش ، وكأن مصر ليست « بلدا زراعية قبل كل شىء . ولا يزال أهم قوام معيشتها مرتكزاً على الزراعة . فهى لمصر أهم بكثير منها لإيطاليا مثلا » وانعدام التمثيل الحكومى ، والإشراف الفعلى على عمل العمد ، يفسح المجال لعبث صغار النفوس منهم ، واستبدادهم بصغار المزارعين دون خشية أو رقيب ، والمثل العامى يقول « المال السايب يعلم الناس السرقة » . وبين تغافل حكام المراكز ، واستبداد العمد ، يلاقى الفلاح صنوفا من الهوان والذل والشقاء ، لم يعد فى إمكانه تحملها ، وليس من العدل الإغضاء عنها .

هذا « الفلاح المسكين » أتاحت له « الأهرام » الغراء فرصة الاحتجاج . فأرسلها من قلبه صرخة أليمة حافلة

بالمرارة والشقاء ! ترى كم من صرخة تقف فى حناجر غيره من القرويين ، ولا تجد مجالا للانطلاق ، لأن صاحبها لا يملك ثمن طابع بريد يحمل شكواه إلى منبر الأهرام ، فتعذبه وتضنيه !؟

لست أطلب تحقيقاً حكومياً فى ذلك الموضوع . لأنى موقنة بصحة كل ما جاء فى خطاب « الفلاح المسكين » بل إنى لأعلم يقيناً أن ما خفى علينا من شقاء الريفيين أكثر . والعمدة لا يعدم مئات من الشهود ، يبيعون ضمائرهم برضاء العمدة . ويلفقون التهم على الأبرياء فراراً من قسوة الاضطهاد . أجل لست أطلب تحقيقاً ، ولكنى أتساءل هل تعجز الحكومة عن الإشراف على القرى ؟ إن فى المراكز وعواصم المديريات آلافا من الموظفين ، يعملون أعمالا تافهة . ويشغلون وظائف لا تتناسب أسماؤها ومرتباتها مع ما يقومون به من عمل فعلى ، وقد آن لهم أن يفهموا أن الوظائف كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة . « ليست أرائك للجلوس عليها . ولكنها مراكز محفوفة بالتبعات » فماذا لو أشغلت الحكومة بعض هؤلاء الموظفين فى حماية رعاياها القرويين ؟ وما الذى يمنع

من أن يختص كل واحد منهم ببضع قرى . يتغلغل فى دور صغار مزارعيها . ويستمع إلى صرخات الأطفال . ويصغى إلى شكوى النساء . ويكشف الستار عما تخفى صدور الرجال من ألم مكبوت وثورة مكبوحة ؟ وعما يجرى فى الريف من مهازل لا تليق بعصر يسمونه عصر الحرية والنور :

ارحموا الفلاح !

لا بل ارحمونا نحن ! ارحموا الأجيال القادمة من هول المستقبل إذا ظل الفلاح كما هو كتلة ذليلة مهملة ، ارحموا أبناءنا وأحفادنا واذكروا واجبنا نحوهم .

لقد تستطيع الحكومة أن تلتمس لنفسها بعض العذر فى بطء الإصلاح . ولكنها لن تجد عذراً فى التقصير عن حماية مواطنيها التعساء من استبداد بعض الأفراد . ولا بد للفلاح من قانون حازم يحميه من الظلم ومن القسوة والاضطهاد !

***

إن مجرد التأمل فى نظام العمدية ، يكفى للدلالة على استبداد شهوة الحكم ببعض الأفراد . فالعمدة لا يقبض مرتباً ولا ينال على مركزه أجرا ، وكل ما يكسبه رسمياً هو إعفاء بعض أطيانه من الضرائب ، وإعفاء أولاده من واجب

القيام بالخدمة العسكرية ـ وتلك لعمرى مهزلة ! ـ فلو كان العمد يدركون مسئولية المركز حق الإدراك ، لما استماتوا فى سبيل العمدية ، ولما استفحلت العداوة بين كبار الأسر فى الريف من أجل العمدية ! هل يمكن تعليل تلك الاستماتة بغير شهوة السلطة ، وبغير الأرباح التى يجنيها العمدة ظلماً وعدوانا من استغلال صغار المزارعين ؟! إن الثمن البخس الذى يناله العمدة بالإعفاء من بعض الواجبات ، لا يغرى بتحمل أعباء المسئولية ، لولا أن الكثيرين لا يفهمون أن للمركز أعباء وتبعات ولا يجعلون منه إلا أداة تحكم ورياسة واستبداد واستغلال .

الضرورة قاسية ملحة ، وقلم قضايا الحكومة لن يكلف الخزينة شيئاً فى سبيل القيام بوضع القانون المنشود . وقد آن لحضرات العمد أن يفهموا أنهم وصغار المزارعين سواء أمام الحق والعدل ، وأن أكرم الأفراد على الوطن ، أكثرهم قياما بواجبه ، وهم لن يفهموا ذلك إلا إذا حال بين الفلاح وبين استبدادهم وتمسكهم قانون حازم . يوقف كل فرد عند حده لا يتعداه . ويحمى الفلاح المسكين من قسوة الظلم وفاحش الاستغلال .

فى قبور الاحياء المجاهدين

آن لنا أن نفتش فى القرى المهملة عن قبور الأحياء المجاهدين ، وأن نزيح عنها الأغطية الزائفة لنرى الجثث الحية ، يقتلها الجوع وتنهشها الأمراض .

قال لى البعض : لم تدعى فى قاموس البؤس كلمة واحدة إلا استعنت بها على وصف شقاء الفلاح ، أما آن لك أن تهدئ ؟ ! فأذهلنى ذلك التعبير ومضيت أفكر . ذكرت أننى حين مررت فى طرقات القرية ، وحين تغلغلت فى دورها القذرة المظلمة . وأنصت بقلبى إلى الأنات اللاهثة الضعيفة التى تذيب القلب وتضنيه ، وحين ازدحمت الآلام فى دماغى تستبد به وتريد انفجارا ، لم أكن أفكر فى أن للبؤس قاموساً ، وأن الكلمات التى نعبر بها عن الألم قد تنفد إذا طالت بالإنسان الشكوى وطال منه الحديث ، والآن أتساءل أحقا قد تنفد الكلمات ؟ أترانى قد أقف مكتوفة اليدين صامتة اللسان وأنا أرى أمواج البؤس تطغى على الفلاح

نشرت فى الأهرام فى ٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٥

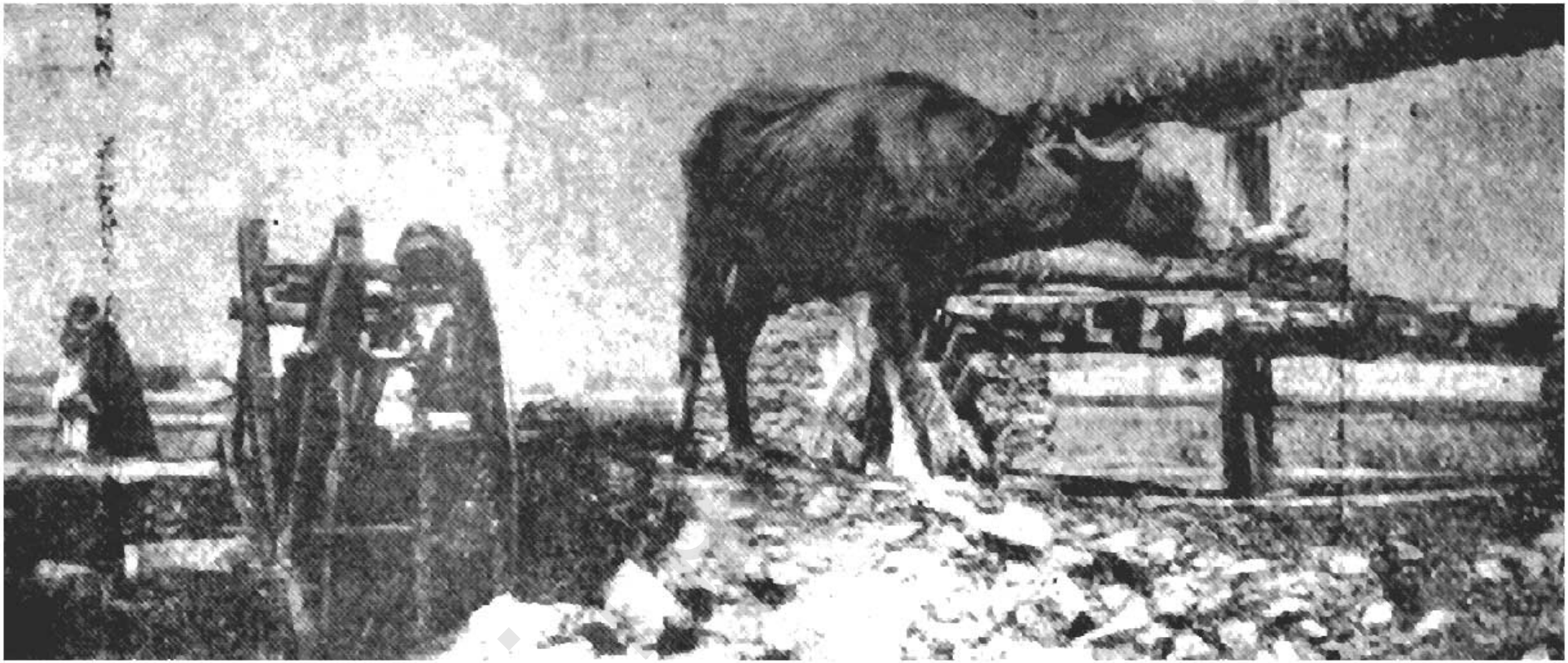

همراه !

الشقى المجاهد فتغمره وتغمره حتى يختنق ، ثم أفتش فى دماغى فلا أجد كلمات جديدة تصف بؤسه ، ولا أستطيع أن أرسلها من أعماقى صرخة حزينة تهيب بالناس أن أنقذوا الفلاح !

فى صميمى ، أعتقد أن نظرة شاردة عجلى ، يلقيها الإنسان عرضاً على فلاح مهدم يدب على الأرض وكأنه يخطو إلى القبر ، ويعمل فى الحقل وكأنه يذيب قواه وقطرات حياته فى الأرض التى يحرثها ، نظرة واحدة تكفى لأن تحمل إلى قلوبنا ، حديثاً بليغاً عن الشقاء العجيب .

لو أن طائفة المزارعين كانت أقلية ضئيلة لاستطعت أن أخنق فى صدرى لهفة عطفى عليهم ، ولقلت فى شجاعة متكلفة : لا بأس ، فئة قليلة تشقى لتسعد الأكثرين ، إذا كانت سعادة المجموع لا تأتى إلا بشقاء البعض وتضحية البعض وإذا كنا نحن أنانيين بطبيعتنا ، ففيم ياقلب التألم وفيم الأنين ؟ ولكن القرويين هم الأغلبية الساحقة فى مصر الزراعية . بضعة ملايين تشقى وتتخبط فى ظلمات مرضها وعوزها لتسعد الآخرين ، فلو أفناها الشقاء كان فى فنائها هلاكنا جميعا .

« شقاء الفلاحين فادح ، وإصلاحه يقتضى جهودا

جبارة ، وليس من المستطاع أن نصلح قرى كل ما فيها يقتضى إصلاحا » هكذا يقولون دائما ، ولكن هل تدعو فداحة الشقاء إلى الصمت والسكون ؟ وهل كون كل ما فى القرية يقتضى إصلاحا ، يقعدنا عن الإصلاح ؟ إذا كنا فى مصر نفهم ذلك ونهضمه فى سهولة ويسر ، فالناس جميعا يعتقدون أن فداحة الشقاء تدعو إلى الإسراع فى الإصلاح ، وأن جهودنا يجب أن تتناسب مع قسوة الواقع ، وهكذا يفهم غيرنا ، وهكذا علمنا أساتذة المنطق .

* * *

لست أخشى أن يتهمنى البعض بأننى خيالية ، وما أسهل اتهام الفتيات بذلك ! ـ حين أتحدى جميع المصريين متسائلة هل فينا من لا يعترف بشقاء الفلاح ؟ وهل من فرد ينكر أن الفلاحين غالبا ، هم أشقى الناس وأشدهم عوزا ؟

قد أفهم أن يتردد البعض فى وجوب الإصلاح ، وقد أفهم أيضا أن يظن البعض أن الفلاح لاتزال لديه قوة الاحتمال ، ولكنى لا أصدق أن إنسانا يقول ـ وهو يعنى ما يقول ـ إن الفلاح (أحسن من غيره !)

نحن إذن مسلمون جميعا بشقاء الفلاح ، ولكن هذا

هنا التسليم معناه فى بلادنا أن يسخر الفلاحون فى أعمال مضنية مرهقة ، والأجر هو سلسلة من الشتائم القذرة الأليمة ، يقذفها أصغر موظف منتدب المراقبة ، فى وجه الفلاح (الجلف الحمار ابن الحمار .)

* * *

عند ما تمتلىء منابع النيل العليا بالماء ، ويدفعها التيار فتسير فى طريقها إلى البحر الأبيض ، قوية صاخبة دافقة ، حاملة بين أمواجها الحياة والموت ، وحين تمضى إلينا ثائرة غلابة ، تطغى أحيانا على الشواطىء ، وتغرق الأراضى المنخفضة بسيل من المياه وكأنما تقول للفلاح الحزين : إذا كنت تريدنى سماءك التى تمدك بالحياة بإذن الله جل شانه فلا تنكر أن يكون لى مع أنوارى سحاب ورعد وبرق !!

وعلى جسور النيل الثائر يحتشد الفلاحون . . . . الفلاحون المحرومون الأشقياء ، ليصدوا هجوم المياه بأجسامهم الناحلة المنهوكة المريضة ، وليعملوا طول النهار تحت رحمة المندوبين السادة وفى قسوة الظهيرة ! ينتزع الرجل من حقله ومن بين أولاده ، ويرحل إلى مكان بعيد لتتم المهزلة ! ليعمل مسخراً بينما تعمل الآفات والمياه الثائرة

فى أرضه الصغيرة التى لا يكاد ثمن محصولها يرحمه من قسوة المحصلين وظلم المرابين ! وبينما تخط دودة القطن فى حقله سطور ذله وعاره وخرابه !

يارحمة الله ! الفلاح الشقى المجاهد ، الذى يؤدى واجباته نحو الوطن كاملة ، والذى لا يظفر بعد جهاده وتعبه بمال يدفعه للضرائب المرهقة ، الفلاح الذى تلتهم الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا والأنيميا قواه ، وتهد كيانه هداً ، ثم يسكن إلى آلامه ويحتملها صابراً صامتاً لا يئن ولا يتوجع . فيعانى الموت البطىء حتى لا يكلفه ذهابه إلى مستشفى المدينة ترك أرضه التى لا تكاد تمده بالكسرة يتبلغ بها والسترة يستر بها عورته ، هذا الفلاح ، ينزع قهراً واعتسافاً إلى جسور النيل فى أى مكان ليعمل مجاناً ؟ وليحمى ثروتنا الزراعية من النقصان ولو كلفه ذلك حياته !

ومهزلة المهازل أن ينتدب الموظف المنعم لمراقبة تسخير الفلاحين التعساء فيمنح مكافأة إضافية فوق مرتبه كأنما كان فى مكتبة بالقاهرة عاطلا فهو يمنح مرتبا إضافيا حين يعمل ، مع اعتبار مرتبه الأصلى ميراثا أورثه إياه آباؤه أو أجداده من قبل ! أو كأنما ننسى أن الموظف الذى

يندب لعملٍ ما . لايحق له أن يأخذ مليما واحدا فوق مرتبه الأصلى . لأنه لايعمل عملين فى وقت واحد . . . لقدترك عملا وندب لعمل آخر فكيف يكافأ على العمل الواحد مرتين ؟ .

المال لمثل هذه المكافآت الظالمة موجود ومتوفر والحمد لله ، وإن استنفد ففى الاحتياطى العام مايسد الفراغ ويملأ الجيوب المنتفخة الأنيقة ، ولكن المال لإصلاح القرى ، المال الذى قال «الدكتور أبولس بولس» إنه الداء والدواء ، هذا المال من نوع آخر . . . من عملة أخرى لم نهتد إليها بعد ولا محل لها من خزينة المصروفات فى مصر !

مائة ألف من الجنيهات أنفقت كاملة فى هذا العام لمقاومة الفيضان من وزارة الأشغال ، وما يقرب من نصف هذا المبلغ فى وزارة الداخلية . وما كان لنا أن نشكو هذا الإسراف ، لو لم تقترن به حقيقة فادحة وهى أن هذا المبلغ الضخم ينفق فى فيضان يقاومه الفلاحون الفقراء دون أجر مطلقاً !

وأعجب من هذا ، أن يحدث ذلك فى وقت يكاد أكثر الفلاحين يموتون فيه جوعا وأن نطلب نصف هذا المبلغ

لإنقاذ آلاف من المزارعين الذين هم ثروة الأمة ، فتصاب الخزينة فجأة بصداع هائل وشلل فى اليد ومرض الإرهاق والعسر !

معالى وزير المالية أجدر الناس بالعطف على تلك الفئة الضالة ، وأعتقد يقيناً أننا لا نطلب محالا حين نسأل أن يكون الفلاح آخر شخص فى مصر يفكر فى تسخيره وتشغيله دون أجر ! حسبه شقاؤه ومرضه وعوزه ! حسبه الحياة الوضيعة المنحطة التى يتخبط فى ظلامها ! حسبه المذلة والاحتقار وكونه لا يحيا كإنسان !

مسألة عدم مكافأة الموظفين المراقبين حين الفيضان لا يعدو أثرها حرمان الموظف من صيف ممتع يقضيه فى أوربا وتحت ظلال الأرز فى جبال لبنان الساحرة ، أو تغيير السيارة طراز سنة ١٩٣٠ بأخرى رشيقة « موديل ١٩٣٥ ! » بينما مسألة عدم منح الأجور للفلاحين ، هى مسألة حياة وموت ! له ولنا وللأمة جميعاً !

* * *

آن لنا أن ننبش قبور الأحياء المجاهدين !

يترك الموظف عمله الأصلى ، ويندب لمراقبة العمال

ـ وهو مركز أدبى يطيب للبعض التمتع بما يلابسه من رياسة وسلطة ـ فيمنح أجراً مضاعفاً ، ونفقات انتقال ، وبدل اغتراب ، ثم يعود فيجد فى انتظاره خطاب شكر رقيق من المصلحة ، وخطاب تمجيد لبطولته ينشره النفعيون الصغار فى الصحف ، وتبحث معى عن العمل المجيد الذى قام به ، فتجده ممثلا فى أوامر قاسية مستبدة وقحة ، يذل بها الفلاح المسكين ، ويتمتع بشهوة الأمر والنهى حين يبتعد عن أوامر رؤسائه ونواهيهم ، ويجرب فى الفلاح مقدار استعداد حضرته لمراكز القيادة وكراسى الرياسة !

وينزع الفلاح الجائع المريض من أرضه للعمل ، فيكون جزاؤه الإذلال والحرمان ، ثم يعود فيجد فى انتظاره الخراب حيناً ، والعمل المتراكم أحياناً !

ورغم هذا كله نعترف جميعا بشقاء الفلاح ، وهذا هو أقسى ما فى الأمر كله !

* * *

كم من المصريين يعرفون أن حفر ترعة المحمودية وحدها سنة ١٨١٩ أهلك اثنى عشر ألفا من الفلاحين المسخرين ؟ إنها حقيقة صادقة دامية ، ومع هذا دارت عجلة

الحياة فى سيرها المعتاد ، وظلت السماء زرقاء صافية ، ولم تجعلها دماء الضحايا التى تبخرت مع الشمس ، حمراء قانية ملتهبة ! والآن ؟ كم من ضحية لقانون العونة حين الفيضان كل عام ؟ لا أدرى ! فقد تعودنا أن نقرأ إحصاء دقيقا عن الأموال التى أنفقت ، وألا نقرأ شيئا عن عدد الضحايا وعدد الأسر الريفية التى قد يهدمها ذهاب عائلها إلى مناطق المقاومة دون أجر ! ولعل إغفال هذه الناحية فيه نظر وإلا فمتى كان لأرواح الفلاحين سعر وثمن فى سوق التعامل ؟ ولكنى أخيراً ، أرجو ألا يخدعنا أن عجلة الحياة تسير ، وأن السماء ليست دامية حمراء ، فلا تزال لها زرقتها الصافية الفاتنة !